الباب السادس
الحياة الاجتماعية عند الحرستانيين

الفصل الأول: اللهجة الحرستانية العامية.

الفصل الثاني: العادات والتقاليد.

الفصل الثالث: الحياة العلمية عند الأطفال (الكتّاب. الخُجا).

الفصل الرابع: الصناعات اليدوية.

الفصل الأول
اللهجة الحرستانية العامية

تعريف اللهجة : هي مجموعة صفات لغوية لبيئة خاصة ، يشترك فيها جميع أفرادها ، وعلاقة اللغة باللهجة هي علاقة العام بالخاص ، وتتكوَّن بسببين رئيسين :

الأول : انعزال البيئة عن غيرها من البيئات .

الثاني : الصراع اللغوي نتيجة غزو أو هجرات ، ولا بدَّ لهذين السببين من فترة زمنية كافية لحدوث التغيير في اللهجة .

وإذا نظرنا إلى اللهجة العامية الحرستانية التي نحاول دراستها فإننا نجد أنها ليست بمعزل عن اللهجة الدمشقية ، ولا تنفصل عن لهجة الغوطة ، فبينها وبين جيرانها قواسم مشتركة كثيرة . وخصائص اللهجة وطبيعتها تبدو في نطقها أكثر مما تبدو في كتابتها .

شيوع اللغة العامية : لقد علقت اللغة الفصحى ألفاظ كثيرة من الفارسية والرومية والتركية فأفسدت العربية فساداً كبيراً . وكان أهل حرستا يتحدثون بما يقتبسونه من لهجات غريبة عنهم في بعض كلماتهم وأحاديثهم .

قوانين اللهجة العامية:

1 ـ استبدال حرف يصعب نطقه بحرف أسهل نطقاً منه .

فالثاء تتحوَّل إلى تاء : ثلاثة تصبح تلاتة . كما تتحول الثاء إلى سين : أثَرْ تصبح أسَرْ .

والذال تحول إلى دال : شحاذ تصبح شحاد ، وحرذون تصبح حردون .

وذَهَبْ تصبح دَهَبْ ، وذَنَبْ تصبح دَنَبْ .

وحرف الظاء إلى ضاد : «ظُهر» تصبح «ضُهر» ، و«ظفْر» تصبح «ضفْر» .

وحرف القاف إلى همزة : «رقبة» تصبح «رأبة» ، «قَبْرٌ» تصبح «أَبر» «القَشُّ» تصبح «الأَشُّ» .

وتتحول الهمزة إلى حرف يتناسب مع حركة ما قبلها : «رأس» تصبح «راس» و«فأس» تصبح «فاس» ، و«بئر» تصبح «بير» .

2 ـ الزيادة والاختصار: مثل زيادة الراء: «شربكه، شبكه». و«كرتع، كتع». وزيادة اللام: «تَبَلْكَمْ» أصلها «تَبكَّم»، بمعنى: ارتج عليه. وزيادة الباء: «بَحْبَشَ» أصلها «بَحَثَ».

ويختصرون الهمزة: «شيء» تصبح «شي»، و«فيء» تصبح «فَيْ»، و«ضوء» تصبح «ضَوْ».

ويحذفون نون «من»: «خرجت من المسجد» تصبح «خرجت ملمسجد».

ويحذفون أيضاً الألف واللام من بعد «على» الجارة: «ركبت على الحصان» تصبح «ركبت عالحصان».

3 ـ التقديم والتأخير: وهو يقوم على تقديم بعض الحروف وتأخير أخرى مثل: «البحص» أصلها «الحصب»، «فلان أَشْبَهْ» أصلها «أشهب» ذو نشاط وقوة، و«خَفَسْ» أصلها «خَسَفْ».

4 ـ النحت والاختزال: وهو اختصار حروف وزيادة أخرى ودمج الكلمات بعضها ببعض دون اختصار، مثل: «قلت له» تصبح «قلتله»، «كمان» أصلها «كما كان»، «ليكو» أصلها «إليك هو».

الترخيم: وهو في الأسماء بقصد التحبُّب، مثل: (خديجة ـ خدّوج)، (فاطمة ـ فَطُّوم)، (مصطفى ـ صطيف)، (أحمد ومحمد ـ حمادة أو حمدو).

أسماء الإشارة عند الحرستانيين:

«هاد»: للمذكر القريب، وأصلها «هذا».

«هداك»: للمذكر البعيد، وأصلها «ذاك».

«هَيْ»: للمؤنث القريب، وأصلها «هذه».

«هَدْليك»: للمؤنث البعيد، وأصلها «تلك».

«هَدْلُنْك»: للمؤنث والمذكر البعيدين، وأصلها «أولئك».

«هَدْلول»: للمؤنث والمذكر القريبين، وأصلها «هؤلاء».

«هُونْ»: أصلها «هنا».

«إِهْنيك»: أصلها «هناك».

زيادة أحد حروف العلَّة للكلمة في فعل الأمر:

«استرح» تصبح «استريح».

«كُلْ» تصبح «كول».

«قُمْ» تصبح «قُومْ» وتلفظ «أُوْم».

«نَمْ» تصبح «نَامْ».

تسكين آخر الكلمة في الفعل الماضي:

«أكَلَ» تصبح «أكَلْ».

«ضَرَبَ» تصبح «ضَرَبْ».

«نَسَفَ» تصبح «نَسَفْ».

«لَعبَ» تصبح «لعبْ».

حروف الاستفهام:

«أين» تلفظ «وين».

«لماذا» تلفظ «ليش».

«الذي» تلفظ «اللي».

«كيف» تلفظ «اشلون».

«متى» وتلفظ «امتى».

استعمال الياء كحرف نداء وحذف الألف ووضع الواو عوضاً عنها:

«يا أحمد» تصبح «يوأحمد».

«يا محمد» تصبح «يومحمد».

حرف الجواب:

«إه»، وللتأكيد «إي نعم»، و«شو».

وفي السؤال عن الصحة والأحوال:

«اشلونَك»، «اشلونك»، «شوبِدَّك»، «وَلُوْ»، «وَلي»، «فوت»، «فوتي»، «فوتوا»، «راح»، «راحتَ»، «راحو»، «إجا»، «إجت»، «إجوا»، «رايحة»، «رايحين»، «رحنا»، «رُوْح»...

ومن أقوالهم أيضاً:

(اجترَّت الدابة): مضغت لقمة تعلَّلت بها إلى وقت العشاء.

(أحَّ): سَعَلَ.

(الأزْعَرْ): جمعه زعران، الذي يسطو على غيره ويلقي الذعر في النفوس.

(صَمَّغتْ الشجرة): خرج منها الصمغ.

(فَلَّتَه): خلَّصه للطائر وللرجل.

(التحم الجرح): التزق.

(باخ): تغير لونه.

(بح الصوت): إذا أخذته بَحَّة وخشونة وغلظ في صوته.

(بحتر): من بحثره، بحثه وفرَّقه.

(البَسْط): هو مبسوط مسرور.

(البكِّير): من بكَّر إلى الشيء، خرج إليه باكراً.

(بَلَصَ): من بلَّصه، أخذ ماله فلم يدع شيئاً عنده.

(تخ تخ): زجر للدجاج.

(تَعي تيعَى تيعَى): أي تَعالي، وتقال للدجاج أيضاً.

(التَّسْمَيعَة): من سمَّعه الحديث، إذا سمَّعه إياه. ويريدون بها إسماع رجل كلاماً ظاهره لغيره، وهو المقصود به.

(تعنفص): العنفصة، الصلف والخفة والخيلاء والزهو، يقولون فلان متعنفص.

(جاروشة): رحى اليد.

(جَرَّص): شَهَّرَ.

(جرش الشي): لم يُنَعِّم دقَّه، فهو جريش.

(الجرن): حجر مجوَّف لحفظ الماء، أو جرن لدق اللحم.

(الجَزَّة): ما يُجمع من صوف النعجة.

(جمحت الدابة): شمست ورمحت، بمعنى حرنت ونفرت، ودابة رموح وشموس وحرون وجموح ونفور.

(جَمَّ الكرم): قَطَعَهُ، وزبَرَهُ أي، قَلَّمَهُ.

(جوعان حَفْتان): أي جائع جوعاً شديداً، وتُلفظ (هَفْتان).

(الحارة): كل محلة دنت منازلها، فأهلها أهل حارة.

(حاشْ الدابة): رَدَّها، وبالأمر (حوش الدابة)، أي: رُدَّها.

(حاي حاي): زجر للغنم، وغيرها من البهائم.

(حَبَقَ): من حبق متاعه، جَمَعَهُ وربَطَهُ.

(الحُق): الحُقَّة بالضَمِّ، وعاء من الفخار يستخدم للماء والزيت.

(حَتْلْ): بمعنى حَقَلْ.

(حَلْقَةُ الباب): وهي قطعة من الحديد على شكل حلقة، كانت توضع على أبواب الدور الخارجية كي يُدَقَّ بها.

(حَلَّلْ اليمين): كفَّرها، و(حلحلهم): أزالهم عن مكانهم، يقولون: ما كان يتحلحل.

(حنَّن الجوز): فسد لبّه.

(خامِمْ): الطعام الذي تغير طعمه.

(الداكونة): غرفة صغيرة تُجعل فيها أمتعة الدار.

(الدُبَّيَّة): ظرف لوضع الحليب.

(دَحَشَ): أدْخَلَ.

(دَعْبَلَ): كبَّرَ اللقمة ليُسابق غيره في الأكل. والأصل: دهبل.

(دَعَسَ): شدَّة وطء الأرض.

(دومري): ما في بالبيت الدومري. أي أحد، والأصل: تومري.

(رحرح): يقولون ثوب مرحرح فضفاض مُتَّسِعٌ.

(رقعه بالكف): ضربه بكفه.

(رفسه): ضربه برجله.

(الزابوقة): من البيت زاويته، أو مكان خفي في حارة يكون فيها زوايا معوجَّة.

(زَخَّتْ المطر): الدفعة الشديدة منه.

(زَرَبَ الماء): سال.

(زَعَبَهُ): دفعه وأخرجه.

(زغزغ نيته): حاول تبديلها.

(السُّقاطة): الحلقة التي يُطرق بها الباب، وهي من الحديد على شكل كف إنسان يَقْبضُ على كُرة يَضْرب بها الباب وتكون مثبتة فيه.

(سَقْفْ): أي سقف البيت.

(شَقْلَبَهُ): صرعه.

(شَلَّتْ سرواله وزناره): رماه وسلت.

(شَبْ الفَرَسْ): رفع يده.

(شَرَّقْ): ذهب جهة الشرق.

(شرْواكَ بالخير): أي، مثلك.

(الشُّقْفَة): القطعة.

(شَوَّر): أقام حواجز ترابية حول أشجار الزيتون وغيرها، وتُسمَّى «كُسُولْ».

(شوَيَّة): يقولون، أعطني شوية حليب. وهو الشيء الصغير من الكبير.

(الصُّفْرة): كَسَرَ الصفرة، أي: أفطر في الصباح.

(طَمَرَهُ وَطَمَّهُ): إذا خَبَّأهُ تحت الأرض.

(العَبي): الزرع المتكاثف.

(عَرَّقَتْ الدابة) رَعَتْ ما بقي من المرعى بعد رعيه.

(عَزَّره): أهانه وشتمه.

(الفَرْشَخَة): أصلها الفرشحة بالحاء، إذا قَعَدَ المرءُ مستلقياً فألصقَ فخذيه بالأرض، أو فتح بين رجليه.

(فَزَّ): خَفَّ ونهض.

(قَرَصَتْ الثَّوب): إذا دعكته بيدها، وصَبَّتْ عليه الماء.

(قَرَطَ عليه مبلغ كذا): حرمه إياه.

(قفقف من البرد): ارتعد.

(أَلْعُونا عالضَّيْعَة) : أي ، هيَّا بنا نذهب إلى الضَّيْعَة[1] .

(كَتَّبْتُه) : علَّمته الكتابة .

(كَنْكَنْ) : كسل وقعد في بيته .

(مغسني بطني) : هو المغس ، وتقال بالصاد .

(نأنأ في الأكل) : أكل أكلاً ضعيفاً .

(نَتَرَ يده) : جذبها بجفاء .

(نتفة) : يقولون : سقاني نتفة من لبن ، أي : شيئاً ، وهي : ندفة في الفصيح .

(النَمَشْ) : نقط بيض وسود ، أو بقع في الجلد تخالف لونه .

(نَوَّصَ) : قلَّل ، يقولون : نوَّس ضوء الفانوس ، أي قلَّل من إضاءته .

أمثال عامية يتداولها أهل حرستا :

1 ـ العرس بحرستا والطبل بدومة :

يُضرب هذا المثل إشارة إلى أن أناساً يفرحون أكثر من أصحاب الفرح أنفسهم ، أو يحزنون أكثر من أصحاب المأتم أنفسهم .

2 ـ شَبْ مزوزق حرستاني :

أي أن شباب حرستا يهتمون بالأناقة وحُسن المظهر .

3 ـ نامت اللِّبْنَةُ وقامَ النُّص ، فأصبَحَ أبو بُرَيْصٌ يُشْبِر ويَقُصْ :

أُطلق هذا المثل على رجل حرستاني فقير قام بإستئجار (ضمان) حقل لأشجار الزيتون ، وعندما أراد قطف ثماره استأجر الأجراء بعد أن نامت التجار عن الضمان . وشُبِّه بنصف اللبنة ، والأغنياء باللبنة .

4 ـ يا أهل حرستا يا بَشَرْ لا تعرفون الياقوت من الحَجَرْ :

وهذا المثل تداوله الحرستانيون منذ الحكم العثماني لهذه البلاد ، وكان هذا الحجر يُستعمل لسد مجرى نهر العلِّيتة شرقي منطقة الكوع وبجانب الطريق العام (السلطاني) الذي كان طريقاً للقوافل القادمة من بلاد فارس والعراق إلى بلاد الشام والجزيرة العربية .

---

(1) الضَّيْعَة : الأرض المغلَّة ، وما زال الحرستانيون ليومنا هذا يقولون عن حرستا (الضيعة) ، وإذا كان أحدهم في الحقول وأراد الذهاب إلى البلدة ، يقول : سأذهب إلى الضيعة .

وفي يوم من الأيام مرَّت جماعة تركية فرأت الحجر وأُعجبت بشكله المستطيل فأرادت أخذه فمنعهم أهل البلدة من ذلك. وفي اليوم التالي عادت هذه الجماعة وكسرت الحجر فوجدته ياقوتاً فحملته وأخذته بعد أن كتبت تلك العبارة بجانب مقسم الماء، وأصبح الناس يتداولون هذه العبارة، حتى أصبحت مثلاً في البلاد.

5 ـ اللي بده يعمل جَمَّال، بده يعلّي باب داره:

وهذا المثل يُضرب لمواجهة الأمور.

6ـ بيدوب الثلج وبيبان المرج:

وهذا المثل للصبر، وانتظار الحقيقة.

7 ـ مو كلّ أصابيعك متل بعضها:

للتمييز بين الصالح والطالح.

8 ـ زيوان بلدك ولا أمح (قمح) الغريب:

لتفضيل الأقارب وأهل البلدة في الزواج.

9 ـ اللي (الذي) ما بيحضر ولادة عنزته بتجيب له جرو:

لمن لا يباشر عمله بنفسه.

10 ـ اللي بيته من إزاز (زجاج) ما بيضرب الناس بحجار:

وذلك لمراعاة الحرمات.

الفصل الثاني
العادات والتقاليد

الأعراس:

من عادة الحرستانيين أنه متى بلغ الشاب عشرين عاماً يتولّى والده إرسال الوالدة مع من ترضاه من أخت وعمة وخالة وسلْفة (زوجة العم)، وبعض نساء الجيران إلى التجول في بيوت البلدة يَبْحَثْن ويُنقِّبْن عنَ فتاة لذلك الشاب. وتكون القاعدة الأساسية في خطبتهم الكفاءة من جهة الثروة والسن والأدب. ولا يزلن يوالين بحثهن مدة، ومتى يستقر رأيهن على إحدى البنات يَقُمْنَ بالتردد إلى بيت أهلها مرّات عديدة ليرينها بجميع مظاهرها، يرينها في زينتها وفي وقت الغسيل، ووقت الطبخ، وتنظيف المنزل، وتُقدِّمُ الفتاة في حرستا عادة القهوة أو بعض الشراب، فتتأمل الخاطبات مشيها ونقل أقدامها وأدبها في تقديم الشراب في الذهاب والإياب، ويخاطبنها فيرين غنة كلامها وفصاحتها، ويرين كيفية خلع نعلها من قدمها. ومتى أصبح الأمر تقريباً وواقعاً ينقلن ذلك إلى الخاطب وإلى والده أيضاً مع وصف شكلها، وجمال وجهها، وطول قامتها، وغير ذلك، وهذا كله من طرف الخاطب.

أما وظيفة النساء من جهة أهل الفتاة فيزرن الحي القاطن فيه العريس سراً ويرسلن من يثقن به من أقربائهن وجيرانهن فيدخلن غالب بيوت ذلك الحي أو الحارة التي يقطن فيها الشاب باحثات عن أخلاقه وثروته وتجارته أو وظيفته. وغالباً ما يكون الشاب معروفاً من قبل والد العروس وخاصة لأن أهل حرستا يعيشون في بيئة متعارفون فيما بينهم. ويبحثن عن عدد آل بيته ومركز تلك الأسرة من الهيئة الاجتماعية، ويذهبن بالمخطوبة سراً إلى مقر الخاطب أو طريق ذهابه وإيابه فتراه، فإذا راق الخاطب في أعينهن بعد البحث يرفعن الأمر إلى والد الفتاة وهنا تنتهي مهمة النساء.

ثم يتألف وفد من والد الخاطب والبعض من أقاربه ويطلبون من والد المخطوبة الموافقة على زواج ابنته من ابنهم بعبارات تختلف حسب مركز تلك الأسر في المجتمع. ووالد الخاطب لا يتكلم بل يترك الكلام لمن يذهب معه من الأقارب ويكون الأمر محلولاً

على الأغلب بعد تلك التمهيدات، ويقررون المهر ويقرؤون فاتحة القرآن الكريم للتبرك دليلاً على رضى الطرفين. وبعد أيام قليلة يقدم الخاطب خاتم الخطبة. ويكتب (عقد القران)[1] غالباً في المحكمة ونادراً في البيت على أيدي بعض أهل العلم. وبعد شهر على الأقل تذهب النساء من قبل العريس بعد أن يكون أهل العروس أتموا لوازم عروستهم يحملن هدية تختلف حسب مكانتهم تسمَّى في حرستا (تعيينة) وطعام (انقوش) يتألف من طحين وسكر وبرغل ورز وحطب. فيعين موعد حفلة العرس وتكون غالباً يوم الجمعة مساءً، ويُحمل (جهاز العروس) على عربة وعلى الرؤوس إلى بيت العريس وتبدأ الزغاريد، ويكون مدّ الجهاز وتجهيزه في بيت العريس قبل العرس بيوم واحد.

أما بالنسبة للرجال فيعد أحدهم داره لكي يتم بها مراسم الأفراح.

الحج إلى بيت الله الحرام:

كان المسلمون فيما مضى من السنين في حرستا وغيرها يلاقون بعض الصعوبات والمشقات في ذهابهم وإيابهم إلى الأرض المقدسة لأداء فريضة الحج. فكان سفر الحاج الحرستاني يستغرق أربعة أشهر على الأقل، وناهيك بما يعترض الحاج من مشاق الأسفار وأهوالها وما يضطر لصرفه من النفقات الباهظة في هذه السبيل. وكان كثير من الأغنياء يتقاعسون عن القيام بهذه الفريضة لعدم توفر الوسائل اللازمة لراحتهم.

وكان الحاج الحرستاني قبل ذهابه إلى بيت الله الحرام يقوم بتحضير خبز التنور ويضعه في الشمس حتى يجف تماماً ثم يضعه في أكياس خاصة، ويأخذ طعاماً للحيوانات التي كان يركبها. وأما أهل الحاج في البلدة يقومون في طلاء (تكليس) جدران البيوت ووضع الزينة وإقامة خيمة مصنوعة من أغصان الأشجار أمام منزل الحاج ويضعون على جدرانها السجاد. وعندما يأتيهم الخبر بأن الحجاج وصلوا إلى دمشق تسرع أهل البلدة إلى أول حرستا عند مصنع الشيخ إبراهيم ومعهم الطبول والنساء والأطفال يجتمعون هناك

---

(1) كان والد الشاب قديماً يطلب دفتر العائلة من أهل العروس لإجراء معاملة (الاذن نامة)، وهي طلب الاذن من المحكمة الشرعية بالزواج، يعلق في بهو المحكمة مدة خمسة عشر يوماً لإطلاع المواطنين عليه. وقد يُعلق في المسجد. بغية الإعتراض على ذلك الزواج، فيما إذا كانت الفتاة على ذمة رجل آخر (بعقد برّاني من قبل أحد الشيوخ)، وما إذا كان هناك رضاع بين الشاب والفتاة من طرف ما. وإذا لم يعترض أحد توافق المحكمة على عقد القران.

لاستقبال حجاج أهل البلدة، وتبدأ الزغاريد من قبل النساء، وتوضع الحنَّة الحمراء للأولاد، وتأتي الأقارب بالهدايا وتسمى (انقوط) وتوزع القهوة المرَّة والتمر وماء زمزم وغير ذلك. وكان يزور الحاج الحرستاني ويسلم عليه جميع أهل البلدة.

الوفاة:

إذا مات أحدهم تعلن وفاته أولاً لأقربائه حتى يعلموا قبل كل الناس في البلدة، ثم يعلنون وفاته في المآذن بواسطة المؤذن، وقبل وجود المآذن كان يركب أحد أقرباء الميت على دابة ويبلِّغ جميع أقربائه ومعارفه، ومن ثم يحضرون المغسِّل من نفس البلدة.

وغُسل الميت في حرستا يقوم مقام التقرير الطبي في هذه الأيام يثبت بها أنَّ الميت مات ميتة طبيعية، فيطَّلع الغاسل على عامة جسمه، فإذا كان فيه أثر ضرب أو رض أو خنق ظهر ذلك لحاضري غسله، وهم غالباً من مُحبِّيه، ثم يُوضع للميت الحنوط وهي ما تُخلط من الطِّيب لأكفان الموتى وأجسامهم خاصةً، ثم يُلَفُّ الميت بأكفان بيض، ومن ثم يُشَيَّع إلى أحد مساجد البلدة ويُصلُّون عليه ويذهبون به إلى المقبرة[1].

وبعد رجوعهم من المقبرة يكون أحد أقاربه قد حَضَّر طعاماً لأهل الميت ومشيِّعوه وتسمى في حرستا (تنزيلة). وعندما يأتي المساء تذهب الناس إلى أهل الميت يُعزّونه بقولهم: عظَّم الله أجركم، فيقول أهله: شكر الله سعيكم ويحضرون على ثلاث ليالٍ وفي وقت المساء. أما الأقارب فتظل مدةً بجانب أهل الميت يواسونهم. ويَقرأ القرآن الكريم أحد المشايخ. وإذا كان من وجهاء البلدة أو أعيانها أو شيخ فاضل يُقرأ القرآن في مآذن المساجد على ثلاثة أيام. ويُسَمُّون التعزية في حرستا (تمْسَاية).

---

(1) تقوم بعض البلاد ومنها حرستا بالآذان أمام الجنازة، بينما الهدي النبوي في ذلك هو الصمت الذي هو الأساس في تشييع الجنازة كي يتولد في قلوب المشيعين الهيبة والوقار والاستعداد للموت وللدار الآخرة. فعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (لا تُتْبَع الجنازةُ بصوت ولا نار). أبي داود (3171)، ومنهم من ينشد حتى وصولهم إلى المقبرة وبعضهم يطعمون الطعام على يوم الأربعين من وفاته وهذا من البدع التي لم تثبت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم.

الختّان:

كانت بعض الأُسر تؤخر ختان (طهور) الطفل خلال السنين الأولى من طفولته، فإذا بلغ ختن، وهو يوم مشهود. ويجري الاحتفال بذلك الختان مع عدد من أقرانه، من أطفال الحي في احتفال مشترك. لذا كانت عملية الختان من المناسبات السعيدة التي تحرص الأسرة على الاحتفال بها. كما أنها تعتبر مناسبة اجتماعية من باب توطيد أواصر المحبة والأُلفة.

وتستمر الأفراح عدة أسابيع قبل إجراء الختان ولذا يجري الختان لعدد من الشباب معاً. ولا يعدُّ المرء رجلاً إلاَّ إذا خُتن مهما بلغ به السن، فيقام لذلك حفلة كبيرة طوال النهار بأن يلبس الولد المراد تطهيره (قمباز)[1]، ويوضع له الزينة، ويركبونه على حصان ويقومون بجولة في أنحاء البلدة، وتقوم النساء في البيت بإحضار الطعام، وتكون وليمة، ويبدأ ضرب الطبل والزغاريد. وكان يقوم بعملية الختان (الحلاَّق)[2].

ثم يؤتى بالصبْية كل على انفراد، فيأتي الواحد منهم فتى شديد البأس من خلفه ويأخذ بيدي الصبي من بين فخذيه ويشدَّهما إليه ويجلس القرفصاء فلا يستطيع الصبي حراكاً. وفي هذه اللحظة ينطلق سرب من الحمام، ويعلو صوت الشباب. بينما يكون (المطهر) قد أخرج ميلاً دقيقاً من الحديد، وموسى ماضياً وبسرعة البرق تتم عملية الطهور، ولا يُسمع صوت بكاء الصبي من خلال ذلك الصخب. ويؤخذ الصبي إلى فراشه، ويُعطى قطعة من القطن مبللة بالقطران وملفوفة بالقماش ومربوطة بخيط يُعلَّق في عنق الصبي، بحيث تكون في متناول يده فيشمها عند تعرضه للروائح، وهذا ما يعرف (بالشمَّامة). وقد اشتهر بعملية الختان في بلدة حرستا بعض أهلها.

وبعد أن تتم عملية الختان، تُتلى قصة المولد النبوي الشريف وتوزَّع صرر الملبس والسكاكر، وحال الانتهاء من ذلك يكون الطعام قد أعدّ، وتأتي الأقارب بالهدايا، ويكون ذلك مقابل هدية مقدمة له بالسابق.

---

(1) هو ثوب من القماش كان سائداً في القرن الماضي، وأساس الاسم (قنباز).

(2) كان الحلاَّقُ في الثلاثينات من القرن الماضي، يمارس اختصاصات منها: قص الشعر، وبَرْمُ (فَتْل) الشارب، ومنها أخذ كاسات الهوى (الحجامة) للمرضى بأمراض معينة، وفتح المصرف (الكي)، وتركيب العلق، وقلع الأضراس والأسنان، بالإضافة إلى الطهور.

وإلى أن يلتئم الجرح يُلبسون المختون (المُطَهَّر) ثوباً عريضاً، فإذا أراد المشي فإنه يمسك به من أمام حتى لا يمس مكان الجرح.

الولادة:

وإذا بلغت الحامل شهرها الخامس، تعمد والدتها إلى خياطة وإعداد ملابس (ديارة) الوليد، وهي تتألف في الغالب من ثلاثة قمصان، ومثلها من الشلحات والأرواب وعدد من الزنانير والطواقي، وثلاثي مطربيات[1] ولئيات[2] بالإضافة إلى الحفاضات. وكانوا يضعون قطعة من اللباد بين كتفي الوليد قبل لفّه باللئية حتى يستقيم جسمه ولا سيما في الشتاء. وفي وقت التذكير لصلاة الجمعة، كنَّ يعمدن إلى صَرِّ ثياب التنزيلة[3]، في بقجة خاصة، ولا ينسين أن يُعددن علبة خاصة يضعن فيها اللوازم الأخرى للمولود من آس ناعم يُرشُّ به تحت إبطيه وحالبيه ومفاصله، ويضعن الكمون الناعم ليرش على يافوخ (رأس) المولود وبعض الملح لرشِّها على سرَّته عند قطعها، وكمية من الكحل في مكحلة لتكحيل عينيه في اليوم الرابع من ولادته.

وعندما يحين المخاض ويشتد الطلق تستدعي والدتها وحماتها للوقوف إلى جانبها، فترسل والدتها في استدعاء (الداية) التي ترسل كرسي الولادة[4]. وعندما تضع المولود ينشغل بال حاضرات المخاض بجنس المولود. ولا تقدر فرحتهن عندما تقول الداية: اللهم صلِّ على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فيعلمن أن المولود ذكراً. فيبادرن إلى الزغاريد، وإن كانت أنثى تقول الداية: الحمدلله على سلامتها، واللي قامت بالهنا، فيعرفن أنها أنثى ويكسِّرن على الأم بأن البنت عطية من الله تعالى.

---

(1) المطربية: هي ما يُلفُّ به ساقا المولود بعد تحفيضه.

(2) اللئية: هي ما يلف به جسم المولود مع ذراعيه فوق المطربية بعد أن تسدل عليه ملابسه الأخرى وهو ما يعرف (بالأندائة).

(3) التنزيلة: هي الثياب التي يحتاجها الوليد ساعة ولادته، وتضم شلحة وروب وزنار ولفحة وطاقية.

(4) كرسي الداية: هو شبه منضدة منكسة مقورة من ترسها، ارتفاعها على مقدار الكرسي، ولقائمتيه الأماميتين امتداد تمسك بهما في حين تحضنها إحداهن من خلف وتشدها إليها عند اشتداد الطلق، ويوضع تحت الكرسي طشت (إناء) لاستيعاب (مية) ماء الرأس.

ويُقدِّم والد المولود للداية علاوة عن أجرها[1] لوح من الصابون وغطاء للصلاة وصرَّة سكاكر وغير ذلك.

وفي ضحى يوم الولادة تدعى الداية مع من حضرن المخاض والأقارب إلى سفرة[2] الخلاص، ويُقدَّم للضيوف الكراوية المغلية المزيَّنة بالجوز واللوز والفستق الحلبي وجوز الهند.

وفي اليوم السابع للولادة يكون (حمام الفسخ)[3]، فتؤخذ النُّفَساء إلى حمام البلدة مع بعض أقاربها فتدهن (بالشداد)[4] من قبل (البلاَّنة)[5]، ثم توضع على بلاط بيت النار في الحمام بعد أن يُفقَّسْ تحتها بعض بيض الدجاج الممزوج بالكمون، فتبقى جالسة حتى تعرق. وقبيل صباح يوم الأربعين للولادة، يدعى أهل النفساء لزوجها وأهلها إلى حمام الأربعين، وعندها تُلَفُّ النفساء بفوطة مقصَّبة وتجلس (تُصْمَدُ) على المصطبة، ثم تؤخذ وتُدهن بالشداد، وقد يُضاف إليه العسَل بدل الدبس، ويوضع قسم من ذلك الشداد تحتها على بلاط بيت النار حتى تعرق، ثم تُحمَّم وتخرج بالزغاريد.

الغسيل على النهر:

إذا كانت المرأة من عامة الناس فإنها تأخذ الألبسة إلى النهر ومعها المخباط من خشب وكمية من مسحوق (الاشنان)[6] اليابس. فتأخذ تبل الثوب في الماء وترش عليه من مسحوق الاشنان وتدعكه بيدها وتضم أجزاؤه بعضها إلى بعض فوق حجر على حافة النهر وهي غائصة في الماء، ثم تجعل تخبطه بالمخباط وتقلبه رأساً على عقب حتى ينظف

---

(1) كانت أجرة الداية في منتصف القرن الماضي حوالي خمس ليرات سورية.

(2) سفرة الخلاص: مائدة الطعام.

(3) حمَّام الفسخ: ويتم هذا الحمام في يوم إفراد، أي من اليوم السابع من الولادة وحتى اليوم الواحد والعشرين منه، وتفسير ذلك في اعتقادهن، بأن الاستحمام في يوم من أيام الإفراد يجعل الحليب كامل التكوين، لأن حليب النفساء يكون بشكل صمغة مفيدة لغذاء ابن أو بنت النفاس، لكن أقل هزة أو رعبة تصيب الواضع قد تسبب هروب حليبها من صدرها، لذا تقوم بحمام النفاس لفسخ الصمغة وتحويلها إلى حليب كامل التكوين.

(4) الشداد: هو مزيج مائع كثيف القوام مؤلف من الزنجبيل والدبس وحبَّة البركة.

(5) البلاَّنة: هي إحدى العاملات في حمام النساء.

(6) هو نبات برِّي إذا أُحرق وهو أخضر يخرج من رماده القلي المعروف. وهو كثير في بلادنا وكانت تُصدَّر منه كميات كبيرة إلى المصابن في جميع أنحاء العالم.

على زعمها. وهكذا تعمل بكل ما لديها من الألبسة وغيرها، وتَفضَّها (تغسلها) بالماء بعد ما تدعكها بيدها وهي في الماء، ثم تعود إلى بيتها تحمل غسيلها فتنشره في الشمس. وأكثر غسيل النساء للألبسة يكون في نهري الحرستاني والعلّيتة.

اللِّباس الحرستاني:

يتألف ثياب الرجال في حرستا فيما مضى من (شروال)[1] وميتان وجاكيت قصيرة لدى الشباب، ومعطف طويل لدى المسنين. وفي الوسط زنار من الحرير، وعلى الرأس (حطَّة) من القطن أو الحرير والغالب أن تكون بيضاء. وشبابها يرتدون غطاء للرأس (السُّلُك الأحمر أو الأسود). ولا يضع الحرستاني العقال فوق الحطة أبداً وهم بذلك يعرفون، حتى أنهم يلقون الحطة إلقاء فتظهر كغطاء النساء.

أما الأحذية فهي من النوع الحلبي ذات اللون الأسود، وبعضها من اللون الأبيض ولكنها قليلة، ويقوم الشباب بكسر مؤخرة الحذاء عند لبسه. ولكن هذا اللباس بدأ يتبدل ويتطور نحو اللباس الشائع في المدينة ويعود للأسباب التالية:

1 ـ النزول إلى دمشق اضطر التقليد.

2 ـ مجيء الفلسطينيين جعل هذا اللباس أكثر شيوعاً.

3 ـ زيادة نسبة المتعلمين الذين يدرسون في دمشق ثم يعودون إلى بلدتهم، ويبقون في لباسهم الذي اعتادوا عليه في المدينة. وما زال قسم كبير من شباب حرستا يرتدون اللباس العربي الشروال والزنار.

أما لباس المرأة فيشمل (المُلاءة) و(البابوج) وكلاهما فارسيان. فالملاءة النسائية تحاك بأنوال خاصة صنعت على أيدي الفرس الذين وفدوا إلى بلادنا وهي ذات مكُّوك مبلول، أمَّا البابوج فهو حذاء نسائي يشبه (الشحَّاطة) ليس له فردة يمينة وأخرى يسارية بل الفردتان متماثلتان.

---

(1) أساس الاسم (سروال) وهي كلمة فارسية، وتجمع على سَراويلاتٌ. وهناك (الشالة) و(الميتان) وكلاهما فارسيان أيضاً، ويوجد الدامر والسَّاكو: وهو معطف طويل الحواشي يصل إلى أسفل الركبة وهو من الجوخ الأزرق السماوي مطرَّز بالقصب، وهو من لباس فصل الشتاء.

المآكل:

عاش أهل حرستا عيشة بسيطة، أكلهم من منتجات أرضهم وما تدرُّ عليهم مواشيهم. فيأكلون من الحبوب الحنطة خبزاً وبرغلاً.

والأطعمة المعروفة عندهم لا تختلف عن أطعمة باقي البلاد كدمشق وغوطتها إلاَّ قليلاً. فالمآكل التي يدخلها اللحم كانت لا تصنع إلاَّ في أوقات مخصوصة كالأعياد والأعراس وللضيوف أو (للفعالة)[1]. وأما المآكل البسيطة الخالية من اللحم فهي شبه طعامهم الدائم (كالمجدَّرة) المشهورة التي تطبخ من البرغل الخشن والعدس والزيت البلدي مع قليل من البصل. وقد قيل في المجدَّرة:

قلت للذي يشفي مخاطر علَّتي ... شيء وحيد وهو صحن مجدَّرة
تونّي بها وحياتكم فتعودني ... روحي وأصبح بالحقيقة عنترة
تونّي بها صحناً كبيراً عامراً ... والأمر أفضل إن أتت بالطنجرة
توتّي بها بالزيت أم باللحم لا ... فرقٌ بشرط أن تكون مدردرة[2]

أما الأكلة المرغوب فيها عندهم كثيراً، بالرغم ممَّا يُعانون في صنعها من تعب وضياع وقت فهي الكبَّة المفضَّلة على جميع مآكلهم. وعندما يريدون طبخها تسرع النساء إلى غسل (جرن الكبَّة) من أجل دقِّ اللحم فيه، وبعد دقِّه يُخلط مع البرغل الناعم ويصنع منه أقراصاً كبيرة تقلى بالزيت بعد حشو تلك الأقراص بمفروم اللحم والجوز والبصل والرمان. والنساء المسنَّات في البلدة ماهرات في صنع أقراص الكبة. ويأكلون أيضاً الكبة نيَّة مع البصل ويُقال لها (دبَّابة) بعد وضع الجوز لها. وإذا لم يتوفر اللحم فإنهم يجعلون البرغل مع قليل من الطحين كي تتلاحم أجزاءه. وقيل في الكبة:

الصرصور للصعرور ... والكشك لباب الدار
والعصيدة للمصيدة ... والكبَّة طول النهار

ومن مآكلهم (اليبرق): وهي لفظة تركية لورق الشجر.

---

(1) الفعالة: هم عمال يعملون بأعمال زراعية مستأجَرين كانوا أو مساعدين.

(2) هذه الأبيات للشاعر أسعد رستم الهزلي الشهير حيث صوَّر نفسه مريضاً وقد يئست من شفائه الأطباء.

والعصيدة تُطبخ في فصل الشتاء غالباً، وهي من الطحين والماء والسكر، ويوضع عليها مبروش الجوز والقَطْر.

وهناك (الششبرك) المطبوخ باللبن وأقراص صغيرة من العجين مملوءة باللحم والبصل والكزبرة.

ومن الأطعمة التي لم يدركها هذا الجيل هي (القشوة) وطريقة تحضيرها كما يلي:

يُحلبُ الحليب مساءً ويُوضع في أوانٍ واسعة عديدة ذات سطح مستو وتترك حتى الصباح، فيصبح الحليب وعليه طبقة رقيقة مَن الزبدة، فتأتي المرأة ومعها الخبز التنوري وتطرح الرغيف فوق الحليب، فيأخذ من الزبدة ما يُغطّي به وجهه، ثم تعود فترفع الأرغفة وتطبق كل رغيفين معاً. وبعد مرور ساعة أو أقل يأكلون هذه الأرغفة أما لوحدها أو مع الدبس إن وجد.

الطبابة في البلدة قديماً:

كانت الناحية الصحية في البلدة متأخرة بصورة ملموسة، فليس هناك من مستوصف بصورة دائمة، وإنما تكتفي بطبيب البلدية الذي يأتي في بعض الأيام ساعات معدودة، كما أن عيادة الأطباء غير موجودة وإن وجد بعضها فيكون مساءً، وهي لا تقدم نفعاً كبيراً مع أن الأمراض كانت منتشرة بصورة كبيرة.

والأمراض السارية التي تحدث أحياناً هي الجدري، والحصبة (الحميرة) والزحار (الديزانتريا)، والقرع في بعض الأولاد، فعند ذلك يأخذونهم إلى (الكرانتينا)[1]. ومن الأمراض التي كانت منتشرة مرض العادية البرداء (الملاريا) بسبب الآبار المجاورة لحفر المراحيض، وفقدان المجارير العامة. وهناك مرض الرمد والتراخوما والنكاف (أبو كعب).

ومصدر هذه الأمراض تعود لأسباب عدة:

1 ـ المياه وخاصة مياه الأنهار القذرة والتي يستعملها الفلاح لجميع حاجاته سواءً في الحقل والبيت. فالغني يتناولها في الحقل، والفقير في مزرعته وبيته.

2 ـ الأوساخ التي كانت تُرمى بالطرقات، أو التي تنتج عن الحيوانات أثناء مرورها إلى الحقول وعند عودتها مساءً إلى البلدة.

---

(1) وتسمى بالمصطلح الطبي (الحجر الصحي)، وكان مقرّها بجانب الكراجات عند مفرق القابون.

3 ـ قيام الفلاحين في فصل الربيع إلى إخراج روث الحيوانات من الاصطبل إلى الطرقات ليوضع عليه الروث الإنساني، وهذا ما يسبب مصدراً للجراثيم إضافة إلى المنظر السيء والرائحة الكريهة.

4 ـ في فصل الصيف يكون الطريق جافاً، وعند خروج المياه من مصاريف بيوتات البلدة تتجمع في الطرقات وتكون مكاناً لتجمع الجراثيم.

5 ـ كانت البلدية تجمع الأوساخ وتضعها في منطقة تقع في غرب البلدة مما يجعل الرياح الغربية تحمل الجراثيم من هذه المنطقة.

أخلاق أهل البلدة:

تبدلت أخلاق أهل حرستا وعاداتهم في هذا القرن عن الذي قبله، فسرت إليهم عدوى الحضارة التي شملت فروع الحياة، ونفعهم تنقلهم في البلاد، وقربهم إلى العاصمة دمشق. فكان الحرستاني لا يفارق أرضه إلاَّ في الجيش، ومعظم الحرستانيون يكرهون الهجرة. وتعلموا بما يقرؤونه أو يُقرأ عليهم وما يستمعون إليه من أحاديث في وسائل الإعلام. واستعاضوا من حيث يشعرون أو لا يشعرون عن بعض عاداتهم القديمة بعادات يقبلها العقل وتقرب من أساليب المتحضرين وكان الحرستاني في القرن الماضي بعيداً عن الغش في لبنه وزيته ودبسه، يعتقد بأن الله تعالى يعاقبه على ذلك في هذه الدار بفجيعته بابنه أو بهلاك بقرته أو عنزته أو نعجته.

والحرستاني كثيراً ما كان يجوع ويصبر ولا يتذمر، ولا أثر للتسول في البلدة ومن عجز بالفعل عن كسب عيشه تكفل به بعض أهل البلدة.

واعتاد الحرستاني أن يجود على من يقصده أيام المواسم، فيعطيه من حبوبه وثماره. ولمَّا جاءت عشرات المئات من أهل فلسطين سنة (1948م) لقوا من إخوانهم أبناء حرستا كل عطف ومعونة.

والألقاب كثيرة بين الحرستانيين، حتى روي أنه كان رجل كبير السن يجلس أمام بيته على (حجر كبير)[1] ويُلقِّب كل رجل مار من أمامه. واللقب في حرستا لا يمكن أن يكون له نظير مثله، ويغلب لقبه اسمه، ونادراً ما يوجد رجل دون لقب.

---

(1) لم يخلو حجر كبير الحجم يوضع أمام دور البلدة، وذلك كي يساعد الناس على الركوب على دوابهم وكي يجلس عليه صاحب البيت إن كان كبيراً في السن، ويوجد بجانب كل باب على الجدار حلقة كبيرة من حجر البازلت كي تُربط بها الدواب.

جدُّ الحرستاني أكثر من هزله، وشغله أطول من بطالته، يهون عليه التعب في جني محصولاته وجمعها وبيعها.

والحرستاني سريع التصديق ـ لصفاء فطرته ونيته ـ ويفرح بكل شجرة يغرسها في الحقل بينه وبين جاره، تعرش أغصانها على غير أرضه وهو يقطف ثمرتها. ويختارون بعضهم العروس التي يملك أبوها بعض الفدادين ليصيبها منه حصة بعد وفاته. ومهما بلغ الحرستاني من رقّة الحال يفرح إذا رزق ولداً، ويسرّه أن تلد له امرأته الذكور ليستخدمهم في سن مبكرة في الأعمال الزراعية. وكان قبل بضعة سنين يشق عليه أن يذهب ابنه إلى الكتّاب لأنه يفضّل أن يعاونه على شقاء الحياة منذ سن السادسة.

والحرستانية أيضاً ترغب في الاستكثار من الأولاد، وإذا تأخّر حملها تهرع إلى القابلات تطلب منهن دواء للحمل، حتى لا تشمت بها أحد قريباتها وجاراتها بسبب العقم أو تأخر الحمل.

والمشكلات في حرستا لا تحوّل إلى القضاء دائماً، بل تُحلُّ بواسطة رجال البلدة الوجهاء والمخاتير وأهل العلم. وكان من الأجدر أن توجد جماعة في حرستا تتألف من بعض الوجهاء لحل المشكلات مهما كان نوعها، كالصلح بين عائلتين إذا كان يوجد عداء بينهما، أو حلّ مشكلة تقسيم مياه الري، وتقسيم التركات بين الورثة، وما إلى هنالك من مشكلات يمكن أن تُحلُّ ضمن البلدة دون اللجوء إلى العنف ثم إلى القضاء حتى لا تزداد المشكلات تعقيداً.

أهل البلدة وفصول السنة:

طالما كانت دورة الأرض الزراعية تعتمد على الأمطار فقد لحظوا كل ما حولهم في بيئتهم وخلصوا إلى تقسيم الشتاء إلى قسمين:

الأول: مدته أربعين يوماً وتسمّى (المربعانية).

الثاني: مدته خمسين يوماً وتسمّى (الخمسينية).

ومن خلال تعايشهم مع أيام الخمسينية وما يعوّلون على تهطال الأمطار وموجات البرد والصحو التي تنتاب أيامها صاغوا أمثالاً نذكر منها:

ـ شباط ما على كلامه رباط.

- خَبِّي فحماتك الكبار لعمك آذار.
- مطرة نيسان تحيي السكة والفدان.
- كل دَرْوَة (سقف) أحسن من فروة.

ويقسمون الخمسينية إلى أربعة سعود مدَّة كل منها اثنا عشر يوماً ونصف اليوم وهي:

سعد الدابح: المتميز بشدة البرد، ويقولون فيه: سعد الدابح بيخلّي الكلب نابح.

سعد بلع: تكثر في أيامه الأمطار، ويقولون فيه: بسعد بلع السماء بتمطر والأرض بتبلع.

سعد السعود: وتبدأ في أيامه تباشير الدفء، كما تدبُّ الحياة في أغصان الأشجار، ويقولون فيه: بسعد السعود بيدب المي في العود وبيدفا كل مبرود.

سعد الخبايا: وتخرج في أيامه الزواحف من أوكارها، سيما في فترات الصحو ويقولون فيه: بسعد الخبايا بتتفتّل الصبايا.

كما تحدث في أيامه المستقرضات وتدوم سبعة أيام، ثلاثة أيام من شباط وأربعة أخرى من آذار، فتصوَّروا أن شهر آذار يخاطب شهر شباط بقوله: ابن عمي يا ابن عمي، ثلاثة منك وأربعة مني لنُخَلّي عجز العجوز تغنّي. لشدَّة البرد في أيام المستقرضات.

ويقولون عيد الجوزة في فصل الصيف، الذي يؤذن فيه بفرط (قطف) ثمار الجوز عن أشجارها.

وقالوا عن تموز: بتموز بتغلي المي (المياه) بالكوز (إناء).

وقالوا عن آب: بآب الصيف عاب، نظراً لانكسار شدة الحر التي تنتاب بعض أيامه.

وفي أيلول: أيلول دنبه (أواخره) مبلول، وذلك لاحتمال تهطال الأمطار في أواخره، ولظهور الغيوم في أيلول.

بعض المعتقدات:

كثرت المعتقدات في بلادنا عبر القرون الماضية، فكان لها تأثيراً كبيراً في نفوس بعض الحرستانيين، واعتبروها ركناً هاماً من أركان حياتهم. وأكثر ما يؤمن بهذه المعتقدات بعض من الفقراء والنساء، لأنها باعتقادهن تُلبِّي كثيراً من الحاجات ومن هذه المعتقدات:

النوبة : كثير ممن لا يعتد بعقولهم ينذرون بعض نذور غريبة تسمَّى (النوبة) يقيمون لها حفلة هي عبارة عن دعوة بعض الفقراء والمشعوذين، ممن يضربون على الطبول ويلعبون بالشيش، وبعض قطع من السلاح الأبيض، ويطفئون بأفواههم النيران، فيجتمع عليهم الأطفال، وبعض صغار الأحلام، وهي عادة أصبحت على وشك الزوال.

صَبُّ الرصاصة : إذا مرض إنسان، وأعتقدن أن سبب مرضه (نضرة) نظرة حسد من إنسان آخر، فإنهن يأخذن المريض إلى رجل يقوم بهذا العمل، وقبل البدء بالتذكير (قبيل آذان يوم الجمعة) يأخذ ذلك الرجل كمية من الرصاص ويصهرها في صحن (إناء)، ويضع على رأس المريض صحناً آخر به ماء بارد وورقة نبات أخضر (زريعة) ثم تُسكب كمية الرصاص المنصهرة في الصحن الذي على رأس المريض، وتكرر العملية ثلاث مرات، فإذا أخذت كمية الرصاص أثناء سكبها شكل إنسان تتحول تلك النضرة (الحسيدة) إلى رصاص ويبطل مفعولها، وإذا انفرط الرصاص إلى ذرَّات في صحن الماء يكون المريض ما فيه شيء ويقوم مُعافى.

أَفْلُ الرَّأس : عندما تشعر إحداهنَّ بألم شديد في رأسها بسبب صداع حاد، فإنهنَّ يعتقدن أن الرأس ينفتح ويفجّ (يلمع) عليها، مما يستدعي القيام بقفله، فيأتين بقطعة قماش (دكَّة) أو ما شابه، ويأتين كذلك بمفتاحين لبابين ويدخلن المفتاحين بالدكة ثم يربطنها ويَلبسن الدكة بمحيط الرأس بحيث يكون كل مفتاح على جانب من الرأس ويفتلن المفتاحين معاً فتلتف عليهما الدكة فتقصر، وتُشدُّ على الرأس كلما ازداد برم المفتاحين، وهكذا حتى ينقفل الرأس من الجانبين، بعد ذلك تحلّ الدكة ويجعل المفتاحان في مقدمة ومؤخرة الرأس. وبعد ذلك يعتقدن أنَّ الرأس يعود إلى وضعه الطبيعي ويتلاشى الألم.

ألعاب الأطفال في حرستا:

الألعاب الطفولية كثيرة جداً في حرستا، وتحمل تراثاً خاصاً تتناقله الأجيال منها ملاعبة الكبار للصغار، كمداعبة الجدة للطفل ومن ذلك: تأخذ الجدة راحة يد الطفلة أو الطفل وهي تمسح على الكف مع كل مقولة:

«يا باح.. يا باح، يا عرء (غصن) التفاح، إجا (جاء) العصفور ليتوضا (ليتوضأ) لأ (وجد) إبريق فضة».

ثم تعمد إلى ثني أصبعاً من أصابع كف الطفل مع كل مقولة:

«هي كشته، وهي كمشته، وهي قبقابة، وهي إبريقه، وهي منشفة» ثم تسارع الجدة بيدها من كفِّ الطفل إلى الرقبة قائلة: «دبّ الليلة، دبّ الليلة».

لعبة (طيمشة ومنيمشة):

وبها تلاعب الجدة الطفل أو الطفلة وقد تشارك أكثر من طفلة وطفل، ومن ثم تنقل العد من كف إلى أخرى عند كل مقولة: حكرة بكرة، آل لي ربِّي عدِّي العشرة. ثم تقول: «طيمشة ومنيمشة، بعتتني (أرسلتني) ستِّي عيشة، لا أشتري كوز وباصل (بصل)، وئع (وقع) الكوز (الإناء) وانكسر، حلفت ستي (أقسمت) لتعلئني (تعلقها) بالشجر والشجر نئوط نئوط (نقوط)، خَبِّي إيدك، يا مليحة، ويا عروس، يام الحلئ (الأقراط)، والدبُّوس (ملاقط الشعر)».

اللعب في الزقاق والحارة:

إذا كبر الطفل، وضاق به البيت وحديقته، يخرج إلى الطريق ليمارس اللعب مع أقرانه، ومن تلك الألعاب ما تكون مشتركة بين الصبيان والبنات، وربما تكون مقتصرة على الأطفال أو على البنات ومن هذه الألعاب:

لعبة طاء طاء طائية:

وفيها يتحلَّق الأطفال، وهم يجلسون القرفصاء على شكل دائرة، باستثناء أحدهم الذي يمسك بيده طاقية، يركض بها حول محيط الدائرة الخارجي وهو يصيح: طاء طاء طائية، محاولاً وضع تلك الطاقية تحت أحد اللاَّعبين خلسة، فينبهه الآخرون بقولهم: رن، رن يا جرس. ويتابع اللاعب ركضه وهو يقول: والثعلب فات، فات. فيرد عليه الجميع: بديله[1] سبع لفَّات.

ويستمر في الركض حتى تُتاح له الفرصة في وضع الطاقية تحت أحدهم ويسرع في ركضه، وما أن يشعر به اللاعب الذي وضعت تحته الطاقية حتى يلحق به محاولاً إمساكه، فإن استطاع الإمساك به نجا بريشه وعاد إلى مكانه.

---

(1) ديله: أي ذيل سرواله المشكول في وسطه.

لعبة الطميمة:

يجتمع الأطفال في مكان من الحارة، ويختارون أحدهم بالقرعة، فيضع وجهه باتجاه الجدار بحيث لا يرى ما حوله. ويبدأ بالعدّ واحد، اثنان، ثلاثة. ومن خلال ذلك يختلف الأطفال إلى أنحاء الحارة ويختبئون حتى لا يراهم صاحب القرعة، ويصيح (المطموم) وجهه قائلاً: فتّح؟ يعلمهم أنَّ له الحق في البحث عنهم، وما أن يغادر مكان الطم، حتى ينسل اللاعبون المختبئون إلى مكان الطم. وإذا اقترب من أحد المختفين يصيحوا الذين نجوا لتحذيره بقولهم: يا متخبِّي حفير وغمِّيء، فإن أمسك به يقف مكان الطفل المطموم.

لعبة الدّحل:

الدحل كرات منها ما هو من الحجر المنحوت، يُطلق عليه اسم (الطحموش) ويكون بحجم البندقة، ومنها ما هو من الزجاج النقي ويطلق عليه اسم (البلورة) ويكون سطحها أملساً. وهناك الفستقية وهي أصغر حجماً من البلورة، ويحوي جسمها على خيوط زجاجية ملوَّنة، وكانت أجود أنواع الدحل ما يعرف بـ(ا، ب، ث).

ويجري اللعب في مكان ممهَّد منزوياً عن المارة، يطلق عليه اسم (المسبل)، ويحفرون حفرة عمقها حوالي 10سم، ويبدأ اللعب بأن ينقف الأولي دحلة إلى الحفرة (الجورة)، ويأتي الثاني فينقف فإذا جاءت في الحفرة أمسكها بإبهامه وسبابته ونقفها باتجاه طحموش الأول فإن أصابها ربح وهكذا. واللاعب الأخير يسمَّى (الطُشِّي).

لعبة الطيارة:

وهي لعبة فردية، يعتمد فيها اللاعب في صنع الطائرة الورقية بإحضار ثلاثة أو أربعة من عيدان (القنّب) ويجعلها بطول واحد يتراوح بين 100 ـ 150سم، ويربطها من منتصفها بحيث تعطي شكلاً سداسياً. ثم يوصل بين رؤوس تلك العيدان بالخيطان، ثم تربط قصاصات الورق بخيط طوله يُقارب المترين بإحدى نقاط المحيط. وهو ما يُسمَّى بذيل الطائرة ثم يقوم بتركيب ميزان لها كي تكون صالحة للطيران، وهو يحتاج إلى دقَّة ومهارة كي لا تجنح الطائرة إلى اليمين واليسار، ثم يأتي بخيط طوله من (200 ـ 300م) يُلفّ على قطعة من الخشب.

لعبة الزَّحْطة:

وهي لعبة خاصة بالفتيات الصغيرات، وتشترك بها اثنتان على الأغلب، فيرسمن على الأرض في باحة الدار أو قرب زقاق المنزل بيوت صغيرة عددها ثمانية بيوت.

تضع اللاعبة على الأرض خارج الرسم قطعة من البلاط أو قشر البرتقال وتزحطها بباطن قدمها الخارجي إلى وسط البيت الأول وتقفز على قدم واحدة إلى ذلك البيت بشكل لا تلامس قدمها حدود الرسم. فإن استطاعت اجتياز جميع البيوت يحق لها أي بيت تريد، وغالباً ما يكون البيت الأول، وتستمر في اللعب حتى تخطئ (تقطم) بوضع قدمها الأخرى على الأرض أو على حدود أحد البيوت. وفي هذه الحال يأتي دور الأخرى التي تحاول احتلال البيت الثاني حتى لا تقطع اللاعبة الأولى الطريق إذا ما احتلته.

الفصل الثالث
الحياة العلمية عند الأطفال (الكتّاب ـ الخُجا)

الكُتَّاب:

كانت الكتاتيب تهدف إلى إنقاذ ما يمكن إنقاذه من اللغة العربية وبعض التراث الذي تمَّ نقل أغلبه إلى (استانبول)، إذ كانت اللغة التركية هي اللغة الرسمية في البلاد إبَّان الحكم العثماني لبلادنا. ولم تكن الدولة تتدخل في تلك الكتاتيب أو تقدم لها بعضاً من المساعدة والتوجيه التربوي وإنما كانت على أيدي بعض الشيوخ بدافع من الواجب والكسب الحلال، مقابل شيء يسير من المال يتقاضاه أسبوعياً من أهل التلميذ.

وشيخ المكتب يتخذ غرفة ملحقة بالمسجد[1] لتعليم الصبيان إذ ينقسمون إلى جماعات، وتقوم بين كل جماعة عارضة خشبية (رحلاية) يضعون عليها مصاحفهم وألواح الكتابة.

أما الشيخ فيجلس على دكة عالية مفروشة، وأمامه صندوق خشبي يضم حوائجه وبعض من أدوات الدراسة، وإلى جانبه قضبان (عصي) مختلفة الأطوال، ينال بها الصبيان القريبين منه والبعيدين عنه. وإذا عطش أحد الصبية أو أراد قضاء حاجة له في الخلاء فعليه أن يقف أمام الشيخ ويرفع سبابته (وهي علامة العطش)، أو خنصره (علامة الخلاء) طالباً الإذن.

وكان الصبي يصحب معه إلى المكتب كيساً يُعلِّقه في رقبته إلى تحت إبطه يضع فيه حوائجه من قلم ولوح وكرَّاس مع زوَّادة طعامه. وعند القراءة تعلو الأصوات أثناء الترديد وبذلك يتهلَّل وجه الشيخ ويبدو عليه السرور، وكانت هذه اللهجة في القراءة لها نغمة خاصة يرددها الصبيان وراء الشيخ وهي:

---

(1) وقد اتخذ مسجد الشيخ موسى أيام العثمانيين مركزاً لتعليم أولاد البلدة على بعض الشيوخ. وفي دائرة (بيت الباشا) كان الشيخ أحمد دفين تلك الدائرة (دايرة) يقوم بتحفيظ الأولاد القرآن الكريم وكيفية لفظ الأحرف والكتابة.

«الألف لا شنّ[1] عليها، الباء واحدة[2] من تحتها، ت تنتين[3] من فوقها، ث ثلاثة[4] من فوقها، ج واحدة من وسطها، ح لا شنّ عليها».

ويوم حفل الختمة هو عيد في المكتب، يرتدي من خلاله الصبية ملابسهم الجديدة، ويتوافد الأهل لحضور الاحتفال الذي يبدأ بتلاوة الفاتحة فعشر من القرآن الكريم من قبل أحد الصبيان، ثم يلي ذلك قراءة قصة المولد النبوي الشريف.

وعندما ينتهي الحفل يخرج الجميع من المكتب في موكب يضم الشيخ والوجهاء وأولياء التلاميذ حتى يصل إلى المسجد فيصلي الجميع خلف الشيخ ومن ثم يُقَبِّل المحتفى بهم يد الشيخ عرفاناً بالجميل.

الخُجا:

إذا بلغ الطفل في البلدة سن السادسة يرسلونه إلى الخُجا التي بدورها تتولى تعليم الصبية والفتيات مبادئ القراءة والكتابة.

فكانت الخجا تتخذ من ليوان منزلها في الصيف مقراً لروّادها من فتيات وصبية صغار، يجلسون جماعات جماعات على فرش وطراريح وقطع من البسُط وجلد الخراف كانت الأولاد يجلبونها معهم، وكل حسب مكانته وإمكانية ذويه. وَتجلَس الخجا على مكان مرتفع عنهم وبجانبها قضبان (عصي) مختلفة الأطوال لضرب الأطفال.

وكانت الخجا تخص كل جماعة بعريفة أو عريف ممن قدم به العهد في دارتها توكل إليهم تحفيظ الدروس. وأما كبيرات البنات فيقمن بخدمة بيت الخجا من تكنيس وشطف وجلي، ومن الصبيان من يقوم بشراء بعض ما تحتاجه من السوق. وأما أجرة الخجا فهي (الخميسية) التي تدفع صباح كل خميس مقدماً من كل طفل وطفلة. وعند ختمه جزء (عم يتساءلون) من القرآن الكريم كانت تنال مكافأة من ولي كل تلميذ والدوام عند الخجا شاق فهو من شروق الشمس وحتى الغروب، وكانت الفسحة بين الدروس المتنفَّس الوحيد الذي ينتظره الأطفال بفارغ الصبر، ويقضون الفرصة بالركض ولعبة الطميمة. وقد يُمثِّلن لعبة الخطبة.

---

(1) لا شنّ عليها: أي لا شيء عليها.

(2) واحدة من تحتها: أي لحرف الباء نقطة من تحته.

(3) تنتين: أي نقطتان فوق حرف التاء.

(4) ثلاثة: أي ثلاث نقط فوق حرف الثاء.

الفصل الرابع
الصناعات اليدوية

1 - صناعة الشرشف الأحمر (رداء المرأة الحرستانية):

لكل قرية من قرى غوطة دمشق ملابس خاصة بها يميزها عن غيرها من البلاد. فحجاب أهل الغوطة بشكل عام (الملاءة) الذي يستر كامل جسم المرأة، وحرستا جزء من الغوطة ولباس نسائها (شرشف)[1] أحمر اللون ذو مربعات صغيرة خطوطها رسمت باللون الأبيض، وأول من صنعه امرأة كبيرة تدعى (أم العبد) وهي من دمشق، فكانت تبيعه في حرستا للنساء، وهو لباس يميز نساء حرستا عن غيرهن من نساء الغوطة. وبعد ذلك اشترى بعض الحرستانيين منسجاً (نول) لنسج هذا الشرشف. والمرأة لا تلبسه إلاَّ داخل البلدة، وإذا خرجت إلى دمشق أو غيرها من بلاد الغوطة فإنها ترتدي (الملاءة) السوداء مع وضع المنديل الأسود على وجهها. وبلغ سعر الشرشف قرابة 40 ليرة سورية في حدود الثمانيات من القرن الماضي.

وهذا الشرشف بدأ بالإختفاء، وهو على وشك الزوال، وقد استبدلت المرأة الحرستانية رداء أسود (جلباب).

2. صناعة البُسُطِ:

تصنع البسط في حرستا من قصاصات الأقمشة الزائدة عن الخياطين، حيث تقوم النساء بوصل هذه القطع مع بعضها حتى تصبح طويلة جداً وبعرض لايزيد عن 2سم. وتلف بشكل كروي، وتسمَّى الواحدة منها (كبكوبة)، ثم تؤخذ هذه الكباكيب إلى صاحب النول اليدوي ليقوم بنسج هذه الأقمشة فتصبح بِساطاً طوله حوالي ثلاثة أمتار، وعرضه متر تقريباً.

---

(1) كان الحرستانيون يحملونه على عصا طويلة في موسم الحج بمكة المكرمة كي يعرف الحرستانيون بعضهم بعضاً خوفاً من الضياع.

ويأخذ صاحب النول أجرة على كل ذراع حوالي نصف ليرة سورية. وقد اشتهر بهذه الصناعة كثير من أهل البلدة.

3. صناعة المكانس (المقشَّات):

المقشَّات، جمع مقشَّة، وتستعمل لتنظيف المنازل من الأوساخ. وتعدُّ المقشات في حرستا من المؤونة البَيْتيَّة كل عام. وتزرع عادة مع الخضراوات في فصل الصيف، وبعد أن تنضج بذورها وتعطي اللون الأسود تقطف وتبرش عنها البذور ثم توضع في الشمس كي تجف، وبعدها تنقل إلى صانع المقشَّات لشدِّها[1] وذلك بواسطة آلة خشبية بسيطة. حتى أن الفلاح الحرستاني يصنع كل عام حوالي عشرين مقشَّة.

4. صناعة الصابون:

ويصنع من الزيت البلدي. ويتم صنعه بأن يوضع بوعاء على النار، ويوضع له الماء ومادة القطرونة، وبعدها يصب في قالب مخصص على الأرض. وبعد يوم كامل يُقسَّم هذا القالب إلى قطع صغيرة، تسمَّى في حرستا (صابون عَكَر). وقد اشتهر بصنعه كثير من أهل البلدة، حتى النساء أصبحن ماهرات في صنع الصابون.

5. صناعة النَّشاء:

يصنع في حرستا لاستهلاكه فقط، وهو يستخرج من الحنطة على طريقة قديمة بسيطة لا شأن للآلات الحديثة فيها. تنقع الحنطة في الماء لمدة (5 ـ 10) أيام تقريباً ثم تسحق برحى اليد ثم توضع في (معجن) وعاء نحاسي كبير فيترسب النشاء الأبيض إلى أسفل الوعاء، أما الماء فيطرح خارج (المعجن) ثم يوضع النشاء على قطعة قماش كبيرة في الشمس حتى يجف ويفتَّت ويوضع للمونة. أمَّا قُشور الحنطة فتوضع علفاً للجمال بعد تجفيفها.

6. صناعة (قمر الدِّين):

ويصنع من المشمش الكلابي[2]، ولا تزال طريقة صنعه بدائية، إذ يُجمع في وعاء خاص ذي ثقوب (غربال) ويضغط بواسطة الأيدي فينزل العصير إلى حوض خاص،

---

(1) وربما يأتي صانع المقشَّات إلى بيت الفلاح كي يَشُدَّ له المقشَّات.

(2) الكلابي: كلمة محرَّفة عن (كل آبي)، ومعناه بالفارسية، ماء الورد.

وبعدها يُؤخذ العصير ويُمدُّ على دفوف خشبية بعد أن تدهن بالزيت لتسهيل فصل قمر الدين عندما يجف بالشمس عن الدف. وقد يوضع المشمش في المبخرة، وهي على شكل (كندوج) خشبي مؤلفة من عشرة دروج يوضع فيها أكثر من 200كغ مشمش، ويوضع له البخُّور وتغلق المبخرة، وبعد نصف يوم تقريباً يُسحب المشمش ويوضع في غِربال ليتم عصره. وكان يُشْحن قمر الدين إلى مصر وشمال بلاد الشام.

7. صناعة السمن العربي:

وهو المادة السائدة قديماً التي يطبخ بها الحرستانيون معظم أغذيتهم. ويصنع السمن بخَضِّ الحليب في مماخض من جلد الغنم تعلق بحبلين يُشدان إلى دعائم ويدوم المخض نحو ساعتين ونصف فيلتصق السمن بداخل (المخضة) ويُقشط بعد تفريغ الحليب. ويُقدَّر أنه يحصل أربعة أرطال من السمن من مائة رطل من الحليب.

8. صناعة النقوع:

وهي ثمار المشمش المجفَّفة، وتسمَّى بالعربية (المفلَّق) تصنع من المشمش البلدي وذلك بأن يُوضع المشمش في الشمس على مسطاح من القشِّ مدة أربعة أيام ثم تكبس الثمار بين الكفين وتترك يومين آخرين ثم ترقق أطرافها بالأصابع ثم تترك يومين أو أكثر فتجف. ويلزم خمسة أرطال من المشمش للحصول على رطل من النقوع.

9. صناعة الزبيب:

وتشتهر حرستا بتزبيب العنب الدربلي، وليس في صنعه صعوبة. فالعنب يُغطَّسْ بماء فيه شيء من القلي والزيت ثم يُفرش على (مسطاح) من القشِّ مدة ثمانية أيام فتجف، ويحسب كل أربعة أرطال من العنب ينتج منها رطل من الزبيب. وكان الحرستانيون يأكلون الزبيب والجوز معاً بعد سحقهما بالجرن وربما أغناهم هذا الغذاء عن تناول الطعام طوال النهار.

10. صناعة الكشك:

ويصنع من جريش الحنطة (البرغل) واللبن والحليب، وبعد أن يتخمَّر الحليب تقوم النساء (بِبَلِّ) البرغل وتغطيته ما يقارب نصف يوم ثم يوضع البرغل فوق الحليب في وعاء

كبير (قدرة فخارية). وغالباً ما يكون الحليب من البقر. وتوزع صاحبة الكشك بعض الكشكة قبل تجفيفها لبعض أقاربها وجيرانها وتسمى في حرستا (كشكة خضرا). وتوزع عليهم هذه الكشكة كي يساعدنها في فرك الكشك (سحقه)، وبعد أنْ يتحمَّض طعمه يوضع فوق قطع كبيرة من القماش تُسمَّى (مَلاَحفْ)، ويُقلَّب بالشمس حتى يجف ومن ثم تبدأ عملية فركه باجتماع النسوة حول ملحفة الكشك، وتُخصَّصْ امرأة لنخله بواسطة منخل ناعم، ثم يوضع الكشك بعد نخله بالشمس لكي يجف. وهذه الصناعة خاصة بالنساء دون الرجال. ويطبخ الكشك عادةً مع العدس والثوم والنعنع اليابس والبصل بعد تحميصه بالزيت. وقد قيل في الكشك:

الكشك شيءٌ خبيث ... محرك للسواكن
الأصل در وبر ... نعم الجدود ولكن!

وقيل فيه أيضاً:

أكلوا لي كشكية قرحت قلبي ... وهاجت لفقدها أشجاني

وأكثر ما يطبخ يوم العطلة صباحاً لاجتماع جميع أفراد العائلة في البيت. وكان يُعدُّ حتى وقت قريب الغذاء الرئيسي لأهل الريف نظراً لغناه بالمواد الغذائية، وتحضيره محلياً.

11. صناعة تخزين الزيتون:

وهي صناعة لها عدة طرق للتحلية. وهي لا تزال سائدة حتى اليوم وأخذت شهرة واسعة في باقي المحافظات حتى وفي الأقطار المجاورة. ومن أنواعه المفقَّش الأخضر ويكون نوعه (الدان) ويوضع له الزيت والليمون، وهناك المشروش وهو الدان الأسود، ثم المجرَّح ويكون من الجلط والمصعبي وهذا النوع يُغمر بالزيت البلدي.